سحــر الحيـــاة

محمد سعد زغلول سالم

الأحد ٢٥ يناير ١٩٧٦

كان يشهدُ ببصيرته أجملَ ما تفيضُ به الحياة مِن معانى وأفكار خلقها الله فى عقول البشر .. وأجملَ ما تتدفَّق به مِن مشاعر وأحاسيس أوْدَعَها فى قلوبهم .. فرغم كلِّ ما كان يتبدى لناظره من مظاهِر للبؤس والشقاء فى جميع جوانبها ورغمَ كلِّ ما تمتلىء به دروبُها من آلام وأحزان وما يتراكم فى كلِّ ركن من أركانها مع كلِّ خطوةٍ للزمن فيها من معاناة ونكبات إلاَّ أنَّه كان يُحِسُّ جمالَ الحياة جمالاً ساحِراً أخَّاذا لا يمكن وصفَ رَوْعته ولا سبيلَ إلى التعبير عن فتنته وبهائه .. فهو الجمال الممكن المُحال .. الممكن بمشيئة الله والمُحال على إحتمال الإنسان. فجمال الحياة لا يستطيع الإنسان إحتمالَه بهذا القلب وهذا العقل وهذا الخيال ! فقد خلقَ اللهُ الحياة أجملَ وأروع مِمَّا يمكن للعقل أوالقلب أو الخيال أن يتخيَّل أو يتصوَّر أو يحْتمل ، وكان عَجْزُه عَن إحْتمال سحْر الحياة وفتنتها هو السبب الدفين وراءَ الكثير مِمَّا يُعانيه فيها من أسَى وأشجان .!. ففى كلِّ لحظة من عمره كان يرى فى معالم الوجود ومظاهِر الكون آياتٍ نابضة بالفتنة والسِحْر والروعة والجمال يتأَّملُها ويتمعَّنُ فيها ولكنه يعجَزُ عن وصفِها مهما حاول ذلك مراتٍ بعدَ مراتْ .. وكان ينتظرُ فى كلَّ يوم يحياه مظاهرَ الجمال التى خلقها الله فى هذا الوجود وهو مأخوذُ بسِحْرها الذى يملؤه بالحَسْرَة واللوعَة والأسَى لأنه سيفارقُها عندما يحينُ الرحيل .. كان يَتَمَّعَنُ ذاهِلاً أشجَانَ المَساء المُنْسابَة من قلب الغيْب وهى تُوحِى إليه بكلِّ معانى وغايات هذا الوجود .. ويشْهَدُ أستارَ الليل وهى تُرْخِى سدولَها على أرجاء الحياة بكلِّ ما تضمُّه من جَمادٍ وأحْياء سيموتُ بغير أن يعرف عنهم جميعا كلَّ شىءٍ مثلما يتمنى ويريد .. ويسمعُ حَفيفَ الزمن وهو يَجِدُّ فى المسير صَوْبَ ضياءات الغَسَق الناعِسَة المتوارية خَلفَ أنوار الفجْر الوردِيَّة المتأَّهِبة لإسْتقبال الصباح .. ويرى شروقَ الشمْس الرائع الأخَّاذ وهى تمنحُ الدفءَ والنورَ والحياة لجميع الكائنات بغير مَنِّ أو تمييز .. ويترقَّبُ غروبَها إلى غياهِب السماء فى أحْضان السُحُب الدامِعَة فوقَ ثرَى الأفق البعيد والذى يدفعُه سِحْرُه الفتَّان كلَّما شَهِدَهُ إلى حافة الشَطَطْ والجنون .. ويرى محْسوراً مقهوراً بغير أن يملكَ شيئا إزاءه بزوغَ القمر وأفولَه مثلما يفعل دَوْماً بغير كَلَلْ أو مَلَلْ منذ ملايين السنين .. ويتأمَّلُ النجُومَ المتلألئة والمتناثرة بغير إنتظام أيْنما أَجَالَ عيونه فى قلب هذا الكون الواسِع السحيق وهو لا يعرف إلى متى ستظلُّ هكذا قبلَ أن يَخْفُتَ منها البريق .. ويرحَلُ مع خياله إلى ما لا يتبَّدى أمامه من بقية المعالم الساحِرة التى نثرَها الله فى كلِّ ركن من أركان الحَياة .. إلى الجبال والوديان .. إلى الصحارى والقِفار .. إلى الأنهار والبحار .. إلى الينابيع والغُدْران .. إلى الحقول والمروج .. إلى المراعى والغابات .. إلى كلِّ شىءٍ وإلى أىِّ شىءٍ تبدو عليه مظاهرُ الحياة أو يَرِينُ عليه صمتُ الموتِ والفناء الأخير .. ويَهيمُ فى أجملَ ما خلقَ اللهُ من أحياء وهو مهْدود بالحسرة والندم لأنَّ كلَّ هذا الجمالَ سيصيرُ يوماً تراباً تذروه الرياح وقد يكونُ فى النهاية وقوداً لنار الجحيم .. ويتساءلُ

بغير توقف مرَّةً بعدَ أخرى : إلهى لماذ جعَلتَ الحياة مُتْرَعَة بكلِّ هذا السِحْر الطاغى وكلِّ هذا الجمال الفتَّان .؟. ولكنه لا يتلَّقى إجابةً أو تفسير. هكذا كان يتكرَّر عذابُه فى كلِّ يوم منذ بدْئِه إلى مُنتهاه .. وهكذا كان يُعانى فى كلِّ لحظةٍ من عمره منذ ذلك الحين البعيد بسبب كلِّ هذا الجمال الأخَّاذ الذى خلقَه الله فى الحياة والذى يعجَزُ عن إحْتمال سِحْره وفتنته .. ويَشْقَى بما يُصيبُه به هذا العجْزُ من حُزنٍ وحسرةٍ ولوعةٍ وأشجان لأنه سيُفارقه إلى غير رَجْعَة عندما يحين أوانُ الرحيل.

